سلسلة الدين النصيحة

النصيحة لكتاب الله

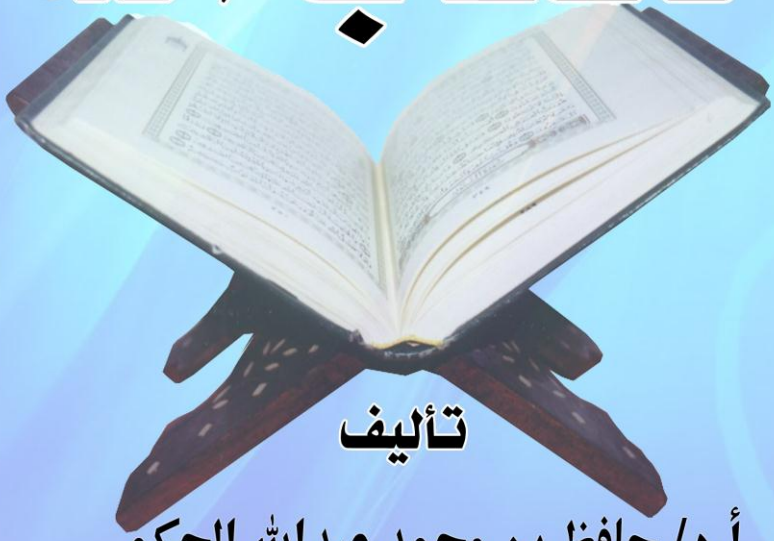

تأليف

أ.د/ حافظ بن محمد عبدالله الحكمي

كلية الحديث بالجامعة الإسلامية في المدينة النبوية

حق الطباعة لكل مسلم

بدون تحوير

يُهدى ولا يباع

النصيحة
لكتاب اللّه

قال رسول الله - ﷺ - : "الدين النصيحة" قالوا لمن يا رسول الله ؟ قال : "لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم" رواه مسلم

تأليف

أ.د / حافظ بن محمد عبد الله الحكمي

كلية الحديث بالجامعة الإسلامية في المدينة النبوية

الطبعة الأولى سنة ١٤١٦هـ

الطبعة الثانية سنة ١٤٣٢هـ

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[1] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾﴾[2] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾[3].

أما بعد..

فإن خير الكلام كلام الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد:

---

(١) آل عمران آية (١٠٢).
(٢) النساء آية (١).
(٣) الأحزاب آية (٧).

فإن الله تبارك وتعالى قد اختار أمة محمد ﷺ لتكون هي الأمة الوسط والشهيدة على سائر الأمم كما قال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[1].

وتلك المنزلة الرفيعة لا يمكن أن تبلغها الأمة إلا بالتمسك بكتاب ربها والاهتداء بهديه؛ لأنه يحمل المؤهلات لبلوغ تلك المنزلة. قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾[2]. قال ابن عباس – رضي الله عنهما –: «ضمن الله لمن قرأ القرآن وعمل به ألَّا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة» ولذلك دعاها نبيُّها صلوات الله وسلامه عليه للنصيحة لكتاب ربها فقال ﷺ: «الدين النصيحة»، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[3].

---

(١) البقرة آية (١٤٣).
(٢) طه آية (١٢٣-١٢٤).
(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان ٩٥٠.

ولقد حظيت الأمة الإسلامية بتلك المكانة العالية التي اختارها لها ربها جل وعلا يوم أن حققت تلك النصيحة التي دعاها إليها رسولها ﷺ وهاهي اليوم قد زُحزحت عن تلك المكانة وأصبحت في مؤخرة الركب.

بل أصبحت مستهدَفةً من أعدائها على اختلاف أهدافهم وتباين نِحَلهم.

ولا خلاص لها من الحال التي هي فيه إلا بالرجوع لكتاب الله وتحقيق النصيحة له كما حققها السلف رضوان الله عليهم، فوجب على المنتسبين للعلم والدعوة إلى الله تعالى أن يولوا هذا الجانب جُلَّ اهتمامهم وأن يعودوا بالأمة إلى النبع الذي استقى منه سلفهم، ولا أعني بهذا أنها لم تبذل جهودٌ بهذا الصدد، كلا! فهناك جهود مشكورة، ولكنها – في نظري – أقلُّ من المطلوب، وقد رأيت من الواجب المشاركة في هذا المجال العظيم بما فتح الله ويسر على قلةٍ في البضاعة فتورٍ في العزيمة، ولكن إن لم يكن وابل فطَلٌّ، وعسى الله أن يجعله فاتحةً لبحوثٍ أكثرَ توسعاً من أهل العلم والفضل.

وكان أصل هذا البحث محاضرة أُلقيت في قاعة المحاضرات الكبرى بالجامعة الإسلامية، ثم عزمت على نشرها في صورة بحث علمي - تلبية لرغبة بعض الأفاضل الذين حضروا المحاضرة - فوسعت بعض

المباحث وأضفت مباحث أخرى يقتضيها المقام حتى صار بهذه الصورة، وقد حاولت في هذا البحث أن أبرز معنى النصيحة من خلال نماذج عملية من حياة الصحابة – رضوان الله عليهم – ليكون أبلغ في إيضاح المعنى وأدعى للنفوس إلى العمل.

هذا وأسأل المولى تبارك وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به ويعظم الأجر والمثوبة ورجائي ممن رأى ما يستحق التنبيه ولا شك في وجوده ألَّا يتوانى في بذل النصيحة.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم.

وكان الفراغ من تبييضه في صبيحة يوم السبت ٢٩/ ٧/ ١٤١٥هـ

الفصل الأول

بيان فضل القرآن على غيره واشتماله على الهداية لخيري الدنيا والآخرة

المبحث الأول

فضل القرآن على غيره

يكفي القرآن الكريم فضلاً وشرفاً أنه كلام الله العليم الحكيم تبارك وتعالى منه بدأ وإليه يعود، قال سبحانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[2].

وقد فضّله تبارك وتعالى على سائر الكتب المنزلة على أنبيائه حيث جعله مهيمناً عليها قال جل وعلا: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[3].

قال ابن عباس – رضي الله عنهما –: المهيمن: الأمين، قال: والقرآن أمين على كل كتاب قبله.

---

(١) التوبة آية (٦).
(٢) الشورى آية (٥٢).
(٣) المائدة آية (٤٨).

وقال ابن جريج – رحمه الله -: «القرآن أمين على الكتب المتقدمة فما وافقه فهو الحق وما خالفه فهو باطل».

وعن ابن عباس أيضاً: مهيمناً: شهيداً. وعنه أيضاً: حاكماً على ما قبله.

وقد حكى ابن كثير – رحمه الله تعالى – الأقوال السابقة ثم قال: «وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمتها وأشملها وأعظمها وأحكمها حيث جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[1].

ومن أعظم فضائله أنه المعجزة الكبرى التي أوتيها النبي ﷺ وقد تحدّى المولى تبارك وتعالى العرب بل الإنس والجن أن يأتوا بمثله، فقال

---

(١) الحجر آية (٩).

سبحانه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[1].

ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[2].

ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة فقال سبحانه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾[3].

وأخبر سبحانه أنهم عاجزون عن الإتيان بشيء من ذلك وأنهم لن يستطيعوا ذلك في المستقبل، فقال سبحانه: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[4].

ولقد كان القرآن الكريم أعظم معجزة أوتيها نبي من الأنبياء وأبلغها أثراً، ذلك أنها معجزة خالدة لم تنته بوفاة الرسول ﷺ.

---

(١) الإسراء آية (٨٨).
(٢) هود آية (١٣).
(٣) يونس آية (٣٨).
(٤) البقرة آية (٢٣-٢٤).

فقد روى – البخاري – في فضائل القرآن من صحيحه عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال النبي ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً إلى يوم القيامة»[1].

قال ابن كثير – رحمه الله تعالى – تعليقاً على الحديث[2] : «في هذا الحديث فضيلة عظيمة للقرآن المجيد على كل معجزة أعطيها نبي من الأنبياء وعلى كل كتاب أنزله الله، وذلك أن معنى الحديث «ما من الأنبياء إلا أعطي – أي من المعجزات – ما آمن عليه البشر» أي كان دليلاً على تصديقه فيما جاءهم به واتبعه من اتبعه من البشر ثم لما مات الأنبياء لم تبق لهم معجزة بعدهم إلا ما يحكيه أتباعهم عما شاهدوه في زمانه وأما الرسول الخاتم للرسالة محمد ﷺ فإنما كان معظم ما آتاه الله وحياً منه إليه منقولاً بالتواتر، ففي كل حين هو كما أنزل، فلهذا قال: «فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً»، وكذلك وقع؛ فإن أتباعه أكثر من أتباع الأنبياء لعموم رسالته ودوامها إلى قيام الساعة، واستمرار معجزته، ولهذا قال تعالى:

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح، فضائل القرآن: ٤٩٨١.
(٢) تفسير ابن كثير: ١١٩/٣.

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾[1].

(١) الفرقان آية (١).

المبحث الثاني

اشتمال القرآن على الهداية لخيري الدنيا والآخرة

النصوص الواردة في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ بشأن القرآن واشتماله على الهداية لخيري الدنيا والآخرة كثيرة يطول بنا المقام إن حاولنا استقصاءها لكن بما أن الغرض هو الذكرى فسوف نقتصر على ما يحقق الغرض إن شاء الله.

يقول الله جل وعلا مثنياً على كتابه الكريم وموجهاً عباده إلى العناية به ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

قال ابن كثير – رحمه الله –: (موعظة) أي: زاجر عن الفواحش. ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي من الشُبه والشكوك وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس»[2].

---

(١) يونس آية (٥٧).
(٢) تفسير ابن كثير: ٢١/٤.

وقال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾[1].

قال ابن مسعود – رضي الله عنه – في معنى الآية: قد بيّن لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء.

وقال مجاهد – رحمه الله تعالى –: كل حلال وحرام[2].

قال ابن كثير – رحمه الله تعالى – بعد حكاية القولين السابقين: «قول ابن مسعود أعم وأشمل؛ فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خير ما سبق وعلم ما سيأتي وحكم كل حلال وحرام وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم»[3].

وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾[4].

قال ابن عباس – رضي الله عنهما –: ضمن الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألَّا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة[5].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾[1].

---

(١) النحل آية (٨٩).
(٢) تفسير ابن كثير: ٥١٣/٤.
(٣) تفسير ابن كثير: ٥١٣/٤.
(٤) طه آية (١٢٣).
(٥) تفسير القرطبي: ٢٥٨/١١.

قال ابن سعدي – رحمه الله تعالى -: «الهدى» ما تحصل به الهداية من الضلالة والشبهة وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة، وقال سبحانه: (هدى) وحذف المعمول فلم يقل هدى للمصلحة الفلانية ولا للشيء الفلاني لإرادة العموم وأنه هدى لجميع مصالح الدارين، فهو مرشد للعباد في المسائل الأصولية والفروعية ومبيِّن للحق من الباطل والصحيح من الضعيف ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم في دنياهم وأخراهم[٢].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[٣].

قال الشيخ الأمين الشنقيطي – رحمه الله تعالى -: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية وأجمعها لجميع العلوم وآخرها عهداً برب العالمين جل وعلا، ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ أي الطريقة التي هي أسدُّ وأعدل وأصوب.

وهذه الآية أجمل فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير طريق وأعدلها وأصوبها فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع

---

(١) البقرة آية (٢).
(٢) تفسير الكريم المنان: ١٧/١.
(٣) الإسراء آية (٩).

القرآن العظيم لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خير الدنيا والآخرة ولكن إن شاء الله سنذكر جملاً أخرى في جهات كثيرة من هدي القرآن للتي هي أقوم بياناً لبعض ما أشارت إليه الآية الكريمة تنبيهاً ببعضه على كله من المسائل العظام والمسائل التي أنكرها الملحدون من الكفار وطعنوا بسببها في دين الإسلام لقصور إدراكهم عن حِكَمه البالغة..».

ثم ذكر – رحمه الله تعالى – هداية القرآن للتي هي أقوم في الأمور التالية: التوحيد، وجعل الطلاق بيد الرجل، تعدد الزوجات، تفضيل الذكر على الأنثى، ملك الرقيق، قطع يد السارق، رجم الزاني المحصَن، أن التقدم لا ينافي التمسك بالدين، أن مَن اتبع تشريعاً غيرَ التشريع الذي جاء به النبي ﷺ كفر كفراً بواحاً، أن الروابط التي يجب أن تربط أفراد المجتمع وأن ينادي بالارتباط بها إنما هي دين الإسلام.

ثم ذكر أن المصالح التي عليها مدار الشرائع ثلاث:-

١ – درء المفاسد المعروفة عند أهل الأصول بالضروريات.

٢ – جلب المصالح المعروفة عند الأصوليين بالحاجيات.

٣ – الجري على مكارم الأخلاق المعروفة عند الأصوليين بالتحسينات والتتميمات.

ثم قال رحمه الله: وكل هذه المصالح هدى القرآن فيها للتي هي أقوم.

ثم قال: ومن هدي القرآن للتي هي أقوم هدايته إلى حل المشاكل العالمية بأقوم الطرق وأعدلها..

ثم ذكر أن أعظم ما يُعاني منه العالم الإسلامي ثلاث مشكلات:-

الأولى: ضعف المسلمين في أقطار الدنيا عن مقاومة الكفار.

الثانية: تسليط الكفار على المؤمنين بالقتل وغيره.

الثالثة: اختلاف القلوب الذي هو أعظم الأسباب في القضاء على كيان الأمة الإسلامية لاستلزامه الفشل وذهاب الريح والدولة كما قال تعالى:

﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾[1] ثم بيّن رحمه الله تعالى كيف هدى القرآن للتي هي أقوم في تلك الأمور كلها بياناً شافياً[2]. وقد جاءت كذلك الإشارة إلى هداية القرآن الحث على التمسك به في حديث رسول الله ﷺ.

ففي صحيح مسلم عن زيد بن أرقم - رضي الله عنه - قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بماء يدعى خُمَّاً بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى

---

(١) الأنفال آية (٤٦).
(٢) أضواء البيان: ٣/٤٠٩-٤٥٧.

عليه ووعظ وذكَّر، ثم قال: «أما بعد: ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم الثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به»، فحث على كتاب الله ورغّب فيه ثم قال: «وأهل بيتي...»[1].

وفي رواية: «كتاب الله فيه الهدى والنور، من استمسك به وأخذ به كان عمل الهدى ومن أخطأه ضل».

وفي حديث جابر الطويل في صفة حجة النبي ﷺ أن النبي ﷺ قال في خطبته يوم عرفة: «وإني قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله...»[2].

وعن ابن مسعود – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جَنَبَتَي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وعند رأس الصراط داعٍ يقول استقيموا على الصراط ولا تَعْوَجُّوا وفوق ذلك داع يدعو، كلما هَمَّ عبد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه

(١) صحيح مسلم، فضائل الصحابة: ٢٤٠٨.
(٢) سنن أبي داود: ٤٦٢/٢، وصححه الألباني، حجة النبي صلى الله عليه وسلم: ٧٢.

تلجه»، ثم فسره فأخبر أن الصراط هو الإسلام وأن الأبواب المفتحة محارم الله وأن الستور المرخاة حدود الله وأن الداعي على رأس الصراط هو القرآن وأن الداعي من فوقه هو واعظ الله في قلب كل مؤمن»[1].

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال:

كان ناس من أصحاب رسول الله ﷺ يكتبون من التوراة فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «إن أحمق الحمق وأضل الضلالة قوم رغبوا عما جاء به نبيهم إلى نبي غير نبيهم وإلى أمة غير أمتهم» ثم أنزل الله ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾[2][3].

إن في تلك النصوص السابقة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لَغُنْيَةً لإبراز عظمة القرآن وهدايته للتي هي أقوم، على أن هداية القرآن لم يكن إدراكها مقصوراً على الجانب النظري فحسب، بل إنها قد تجسدّت في واقع محسوس مشهود للعيان، لَمَسَه القريب والبعيد. إنها قد تجلَّت في أسره عقول العرب الفصحاء وتأثيره العجيب في القلوب، كما تجلت في

---

(١) المسند: ١٨٢/٤-١٨٣، والمستدرك: ٧٣/١. وقال: صحيح على شرط مسلم وسكت عليه الذهبي.

(٢) العنكبوت آية (٥١).

(٣) الإسماعيلي في معجمه وابن مردويه، وأخرجه ابن جرير عن يحيى بن جعدة: ٧/١١.

انتشاله تلك الأمة الأمية من بين ركام الجاهلية الجهلاء والضلالة العمياء ورفعها إلى أوج الكمال البشري وتحويلها من أمة مغمورة مستضعفة إلى أمة مهيبة الجانب تحكم دولة لا تكاد تغيب عنها الشمس، حتى قال الخليفة العباسي هارون الرشيد قولته المشهورة مخاطباً السحابة: «أمطري حيث شئت فسوف يأتي خراجك».

إن هذا الحدث العظيم الذي لم يشهد له التاريخ مثيلاً قد أذهل أعداء القرآن فأعلنوا شهادتهم بعظمته راغمين تَمَثَّلَتْ تلك الشهادة في تحذيرهم لأقوامهم منه والسعي جهدهم لصد الناس عنه. قال تعالى عن كفار قريش: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦ ﴾[1].

قال ابن كثير – رحمه الله تعالى –: «أي تواصوا فيما بينهم ألاَّ يطيعوا للقرآن ولا ينقادوا لأوامره. وقوله ﴿ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ ﴾ أي بالمكاء والصفير والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن، تفعله قريش»[2].

وقال سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ﴾[3].

---

(١) فصلت آية (٢٦).
(٢) تفسير ابن كثير: ١٦٣/٧.
(٣) لقمان آية (٦).

وقد فسر ابن مسعود ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ هنا بالغناء فقد روى ابن جرير بسنده عن أبي الصهباء البكري أنه سمع عبد الله بن مسعود وهو يسأل عن هذه الآية ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ فقال عبد الله: الغناء والذي لا إله إلا هو (يرددها ثلاثاً)[1].

وقد ورد في سبب نزولها أن النضر بن الحارث كان يشتري المغنيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قَيْنةٍ فيقول: «أطعميه واسقيه وغنيه»[2].

أما أعداء الإسلام الصليبيون فكانت عباراتهم أصرح وظهور الشهادة من خلالها أوضح، وهذا دليل على شدة وطأته عليهم وعجزهم أمام هدايته.

ويقول جلادستون وزير بريطانيا الأول: «ما دام هذا القرآن موجوداً فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق ولن تكون هي نفسها في أمان».[3]

---

(١) تفسير ابن جرير: ٦١/١١.
(٢) تفسير القرطبي: ٥٢/١٤.
(٣) أساليب الغزو الفكري ٣٠.

ويقول المبشر بلكراف: «متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه»[1].

وعلى ذكرى مرور مائة عام على احتلال فرنسا للجزائر وقف الحاكم الفرنسي- في الجزائر يقول: يجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم حتى ننتصر- عليهم، وبعد ذلك بسنوات قامت فرنسا من أجل القضاء على القرآن في نفوس شباب الجزائر بتجربة عملية، فتم إنتقاء عشر- فتيات مسلمات جزائريات أدخلتهن في المدارس الفرنسية ولقنتهن الثقافة الفرنسية، فأصبحن كالفرنسيات تماماً وبعد أحد عشر عاماً من الجهود هيأت لهن حفلةَ تخرُّجٍ رائعةً دعي إليها الوزراء والمفكرون والصحافيون ولما بدأت الحفلة فوجئ الجميع بالفتيات يدخلن بلباسهن الإسلامي الجزائري، فثارت ثائرة الصحف الفرنسية وتساءلت ماذا فعلت فرنسا في الجزائر إذن بعد مرور

(١) المصدر نفسه.

مائـة وثمانيـة وعشـرين عامـاً؟ فأجـاب لاكوسـت وزيـر المسـتعمرات الفرنسي: وماذا أصنع إذا كان القرآن أقوى من فرنسا»[1].

رأى الأعادي يوم الروع عجزهُمُ فـما الثعالـب للآسـاد أقـرانُ

فقـال قـائلهم لـن تفلحـوا أبـدا مـا دام للقـوم تـاريخ وقـرآن

قـد أدركـوا سر ذاك الحـزم ويلهُـمُ والجد مهر المنى إن خيض ميدانُ

(١) معركة الحجاب والسفور: ٢٨٩.

الفصل الثاني

الترغيب في قراءة القرآن والعمل به والترهيب من هجره والإعراض عنه

المبحث الأول

الترغيب في قراءة القرآن والعمل به

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾[1].

قال القرطبي – رحمه الله –: هذه آية القراء العاملين العالمين الذين يقيمون الصلاة الفرض والنفل، وكذا في الإنفاق[2].

وقال ابن كثير – رحمه الله تعالى –: يخبر عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة[3].

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل

---

(١) فاطر آية (٢٩).
(٢) تفسير القرطبي ٣٤٥/١٤.
(٣) تفسير ابن كثير ٥٣١/٦.

الريحانة ريحها طيب وطعمها مُرٌّ، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مُرٌّ ولا ريح لها»[1].

وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر – رضي الله عنه – قال: خرج النبي ﷺ ونحن في الصفة فقال: «أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو إلى العقيق فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم ولا قطيعة رحم؟» فقلنا: يا رسول الله! نُحِبُّ ذلك: قال: «أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيتعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عزَّ وجلَّ خيرٌ له من ناقتين، وثلاثٌ خيرٌ له من ثلاثٍ، وأربعٌ خيرٌ له من أربعٍ ومن أعدادهن من الإبل»[2].

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: «ما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسون بينهم إلَّا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفَّتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده»[3].

وفي سنن الترمذي عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنةُ بعشر-

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح، فضائل القرآن: ٥٠٢، صحيح مسلم، صلاة المسافرين: ٧٩٧.
(٢) صحيح مسلم، صلاة المسافرين: ٨٠٣.
(٣) سنن أبي داود: ١٤٥٥، وصححه الألباني، صحيح الجامع: ٥٣٨٥.

أمثالها لا أقول (آلم) حرف، «ألف» حرفٌ و«لام» حرفٌ و«ميم» حرفٌ»[1].

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن عائشة – رضي الله عنها – أن النبي ﷺ قال: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويُتَعْتع فيه وهو عليه شاقٌ له أجران»[2].

وفي صحيح مسلم عن أبي أمامة – رضي الله عنه – قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن فإنَّه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»[3].

وفي صحيح مسلم أيضاً عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدُمُه سورة البقرة وآل عمران تُحاجَّان عن صاحبهما»[4].

---

(١) سنن الترمذي: ٢٩١٠، وصححه الألباني، صحيح الجامع: ٢٦٧٣، ٦٣٤٥.
(٢) صحيح البخاري، التفسير: ٤٩٧٣، صحيح مسلم، صلاة المسافرين: ٧٩٨ واللفظ له.
(٣) صحيح مسلم، صلاة المسافرين: ٨٠٤.
(٤) صحيح مسلم، صلاة المسافرين: ٨٠٥.

وفي صحيح البخاري عن عثمان – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: «خيركم من تعلّم القرآن وعلمه»[1].

يقول ابن كثير – رحمه الله تعالى – في تعليقه على هذا الحديث: «وهذه صفات المؤمنين المتبعين للرسل، وهم الكُمَّل في أنفسهم المُكَمِّلون لغيرهم، وذلك جمعٌ بين النَّفْع القاصرِ والمتعدي، وهذا بخلاف صفة الكُفَّار الجبارين الذين لا ينفعون ولا يتركون أحداً ممن أمكنهم أن ينتفع كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾[2]، وكما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾[3] في أصح قولي المفسرين في هذا هو أنهم ينهون الناس عن اتباع القرآن مع نأيهم وبعدهم عنه أيضاً، فجمعوا بين التكذيب والصد، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾[4] فهذا شأن شرار الكفار كما أن شأن الأخيار الأبرار أن يتكمَّل في نفسه وأن يسعى في تكميل غيره، كما قال عليه الصلاة والسلام: «خيركم من تعلّم القرآن وعلمه» وكما قال تعالى: ﴿وَمَنْ

(١) صحيح البخاري، فضائل القرآن: ٥٠٢٧.
(٢) النحل آية (٨٨).
(٣) الأنعام آية (٢٦).
(٤) الأنعام آية (١٥٧).

أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[1]، فجمع بين الدعوة إلى الله تعالى سواء كان بالأذان أو بغيره من أنواع الدعوة إلى الله تعالى من تعليم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك مما يُبتغى به وجه الله، وعمل هو في نفسه صالحاً وقال قولاً صالحاً أيضاً، فلا أحد أحسنُ حالاً من هذا، وقد كان أبو عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السُّلمي الكوفي أحدُ أئمة الإسلام ومشايخهم ممن رغب في هذا المقام فقعد يُعَلِّم الناس من إمارة عثمان رضي الله عنه إلى أيام الحجاج. قالوا: وكان مقدار ذلك الذي مكث يُعلِّم فيه القرآن سبعين سنة، - رحمه الله – وأثابه وآتاه ما طلبه ورامه آمين» اهـ[2].

وقال إسماعيل بن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما -: «من قرأ القرآن فكأنما أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يُوحى إليه، ومن قرأ القرآن فرأى أن أحداً من الخلق أعطي أفضل منه فقد حقر ما عظم الله، وعظم ما حقر الله»[3].

---

(١) فصلت آية (٣٣).
(٢) فضائل القرآن: ١٢٦.
(٣) المؤمل في الرد إلى الأمر الأول، ضمن مجموعة الرسائل الكمالية: ٢٢/٢.

المبحث الثاني

الترهيب مِن هجر القرآن والإعراض عنه

قد وردت عدة آيات في بيان وعيد المعرض عن القرآن وغير المنتفع به وبيان ما يترتب على ذلك من عواقب سيئة:

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾[1]، وقد علق الأمين الشنقيطي – رحمه الله تعالى – على هذه الآية ثم أورد الآيات المتعلقة بهذا المعنى فقال رحمه الله: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه لا أحد أظلم أي أكثر ظلماً لنفسه ممن ذُكر أي وُعِظَ بآيات ربه وهي هذا القرآن العظيم ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ أي ولّى وصد عنها.. وما ذكره في هذه الآية الكريمة من أن الإعراض عن التذكرة بآيات الله من أعظم الظلم قد زاد عليه في مواضع أُخر بيان أشياء من النتائج السيئة والعواقب الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن التذكرة، فمن نتائجه السيئة ما ذكره هنا من أنَّ صاحِبَهُ من أعظم النَّاس ظُلماً، ومن نتائجه السيئة جعل الأكِنَّةِ

---

(١) الكهف آية (٥٧).

على القلوب حتى لا تفقه الحق وعدم الاهتداء أبداً كما قال هنا مبيناً بعض ما ينشأ عنه من العواقب السيئة ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾[1].

ومنها انتقام الله جلَّ وعلا من المُعْرِض عن التذكرة كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[2] الآية.

ومنها كون المُعْرِض كالحمار كما قال تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ ﴾[3] الآية.

ومنها الإنذار بصاعقةٍ مثل صاعقة عادٍ وثمود كما قال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾[4] الآية.

ومنها المعيشة الضنك والعمى كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾[5].

---

(١) الكهف آية (٥٧).
(٢) السجدة آية (٢٢).
(٣) المدثر آية (٤٩-٥٠).
(٤) فصلت آية (١٣).
(٥) طه آية (١٢٤).

ومنها سَلْكُه العذاب الصَّعَد كما قال تعالى: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾[1].

ومنها تقييض القرناء من الشياطين كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾[2].

إلى غير ذلك من النتائج السيئة والعواقب الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن التذكير بآيات الله جلَّ وعلا، وقد أمر الله في موضعٍ آخر بالإعراض عن المتولي عن ذكره القاصر نظره على الحياة الدنيا وبيَّن أنَّ ذلك هو مبلغه من العلم فلا علمَ عنده بما ينفعه في معاده وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾[3].

وقد نهى جلَّ وعلا عن طاعة مثل ذلك المتولي عن الذكر الغافل عنه في قوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[4]. اهـ[5].

---

(١) الجن آية (١٧).
(٢) الزخرف آية (٣٦).
(٣) النجم آية (٢٩-٣٠).
(٤) الكهف آية (٢٨).
(٥) أضواء البيان ٤/١٥٤ - ١٥٦.

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾[1].

قال ابن كثير – رحمه الله تعالى – في تفسير الآية: وذلك أنَّ المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يسمعونه كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[2]. وكانوا إذا تُلِيَ عليهم القرآن أكثروا اللفظ والكلام في غيره حتى لا يسمعوه، فهذا من هجرانه وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره من شعرٍ أو قولٍ أو غناءٍ أو لهوٍ أو كلامٍ أو طريقةٍ مأخوذة من غيره من هجرانه، فنسأل الله الكريم المنان القادر على ما يشاء أن يخلصنا مما يسخطه ويستعملنا فيما يرضيه من حفظ كتابه وفهمه والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يحبه ويرضاه إنَّه كريمٌ وهَّاب»[3].

وكذلك بيَّن ابن القيم أنَّه يدخل تحت الهجر الذي تعنيه الآية أنواعٌ من الهجر متفاوتةٌ، فقال رحمه الله تعالى: «هجر القرآن أنواع: أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه، والثاني: هجر العمل به والوقوف

---

(١) الفرقان آية (٣٠).
(٢) فصلت (٢٦).
(٣) تفسير ابن كثير ١١٧/٦.

عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به. والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه واعتقاده أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم. والرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه. والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به. وكل هذا داخلٌ في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾[1] وإن بعض الهجر أهون من بعض[2].

(١) الفرقان آية (٣٠).
(٢) الفوائد ٧٥.

الفصل الثالث

التعريف بالنصيحة لكتاب اللّه تعالى من خلال النصوص وأقوال السلف وأفعالهم

وفيه عدة مباحث:

المبحث الأول

في بيان معنى النصيحة لكتاب الله

أ – بيان معنى «النصيحة»:

قال المازري: النصيحة مشتقة من نصحت العسل إذا صفيته. ويقال: نصح الشيء إذا خلص، ونصح له القول إذا أخلصه له. أو مشتقة من النُّصْح، وهو الخياطة بالْمِنصَحَة وهي الإبرة. والمعنى: أنَّه يَلُمُّ شَعْثَ أخيه بالنُّصْحِ كما تَلُمُّ المِنصَحة، ومنه: التوبةُ النَّصُوحُ، كأنَّ الذَّنب يُمَزِّق الدين والتوبة تُخَيِّطُه[1].

وقال الخطابي: النصيحة كلمةٌ جامعةٌ معناها حيازة الحظ للمنصوح له، ويقال: هو من وجيز الأسماء ومختصر الكلام وليس في كلام العرب كلمة مفردة يستوفى بها العبارة عن معنى هذه الكلمة، كما قالوا في الفلاح: ليس في كلام العرب أجمع لخير الدنيا والآخرة منه[2].

ب – بيان معنى «النصيحة لكتاب الله»:

---

(١) المُعْلِم بفوائد مسلم ١٩٧/١، وانظر: فتح الباري ١٣٨/١.
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٣٧/٢، فتح الباري ١٣٨/١.

قال الإمام محمد بن نصر المروزي – رحمه الله تعالى –: النصيحة لكتاب الله: شدة حبه وتعظيم قدره، إذ هو كلام الخالق، وشدة الرغبة في فهمه، ثُمَّ شدة العناية في تدبره والوقوف عند تلاوته لطلب معاني ما أحب مولاه أن يفهمه عنه ويقوم به بعد أن يفهمه، وكذلك الناصح من العباد يتفهم وصية من ينصحه وإن ورد عليه كتاب منه عُنِيَ بفهمه ليقوم عليه بما كتب به فيه إليه، فكذلك الناصح لكتاب الله يُعْنى بفهمه ليقوم لله بما أمر به كما يحب ويرضى، ثُمَّ ينشر ما فهمه في العباد ويديم دراسته بالمحبة له والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه[1].

وقال النووي – رحمه الله تعالى –: النصيحة لكتاب الله تعالى: الإيمان بأنَّه كلام الله تعالى وتنزيله لا يشبهه شيءٌ من كلام الخلق ولا يقدر على مثله أحدٌ من الخلق، ثُمَّ تعظيمه وتلاوته حقَّ تلاوته وتحسينها والخشوع عندها وإقامة حروفه في التلاوة، والذَبُّ عنه من تأويل المحرفين وتَعرُّضِ الطاعنين، والتصديق بما فيه، والوقوف مع أحكامه، وتفهم علومه وأمثاله، والاعتبار بمواعظه، والتفكر في عجائبه، والعمل بمحكمه،

(١) تعظيم قدرة الصلاة ٦٣٩/٢.

والتسليم لمتشابهه، والبحث عن عمومه وخصوصه وناسخه ومنسوخه، ونشر علومه، والدعاء إليه وإلى ما ذكره من النصيحة[1].

وقال الحافظ ابن حجر – رحمه الله –: النصيحة لكتاب الله تعلُّمه وتعليمه، وإقامة حروفه في التلاوة وتحريرها في الكتابة، وتفهم معانيه، وحفظ حدوده، والعمل بما فيه، وذَبُّ تحريف المبطلين عنه[2].

قلت: هذا مجمل معنى النصيحة، وهو مأخوذٌ من نصوص الكتاب والسنة وأقوال السلف وأفعالهم، وسوف يأتي تفصيل أهم تلك المعاني فيما يلي من مباحث إن شاء الله تعالى.

---

(١) شرح صحيح مسلم ٣٨/٢.
(٢) فتح الباري ١٣٨/١.

المبحث الثاني

قراءة القرآن مع الإكثار منها والمداومة على ذلك

إنَّ قراءة القرآن عبادة لله عزَّ وجلَّ، أمر بها في كتابه ورغَّب فيها، قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾[2].

وقد حثَّ عليها كذلك المصطفى صلى الله عليه وسلم، ففي صحيح مسلم عن أبي أمامة الباهلي – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرءوا القرآن فإنَّه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»[3].

ولقد كان ﷺ القدوة العملية في المداومة على قراءة القرآن؛ ففي سنن أبي داود عن أوس بن حذيفة رضي الله عنه قال: قدمنا على رسول الله ﷺ

---

(١) الكهف آية (٢٧).
(٢) فاطر آية (٢٩-٣٠).
(٣) صحيح مسلم. صلاة المسافرين: ٨٠٤.

في وفد ثقيف – فذكر أن رسول الله ﷺ كان يأتيهم كل ليلة بعد العشاء يحدثهم، ثُمَّ قال -: فلمَّا كانت ليلة أبطأ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأت عنا الليلة. قال: «إنَّه طرأ عليَّ حزبي من القرآن فكرهت أن أجيء حتى أُتِمَّه.

قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف كنتم تُحَزِّبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة، وحزب المفصَّل وحده[1]».

وفي آخر الحديث ما يفيد أنَّ الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يداومون على قراءة القرآن كذلك.

ولقد كان النبي ﷺ يكثر هو وأصحابه من قراءة القرآن وختمه، فعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: «كان رسول الله ﷺ لا يختم القرآن في أقل من ثلاث»[2].

فمفهوم هذا الحديث أنَّ النبي ﷺ كان يختم القرآن في مدَّةٍ يسيرة وإن كانت لا تقل عن ثلاث، وكان يأمر أصحابه رضوان الله عليهم بذلك،

---

(١) سنن أبي داود، رقم ١٣٩٥.
(٢) عزاه ابن حجر لأبي عبيد. الفتح ٩٧/٩.

ففي سنن سعيد بن منصور، عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنَّه قال: «اقرءوا القرآن في سبعٍ ولا تقرءُوه في أقل من ثلاث»[1] وقال ابن حجر: اسناده صحيح.

وقد حكى النووي عن السلف – رضوان الله عليهم – كثرة قراءتهم للقرآن وختمه، فقال – رحمه الله تعالى –: «وكان السلف رضي الله عنهم لهم عاداتٌ مختلفةٌ في قدر ما يختمون فيه، فروى ابن أبي داود عن بعض السلف – رضي الله عنهم – أنَّهم كانوا يختمون في كل شهرين ختمة واحدة، وعن بعضهم في كل شهرٍ ختمة، وعن بعضهم في كل عشر ليالٍ ختمة، وعن بعضهم في كل ثمان ليالٍ ختمة، وعن الأكثرين في كل سبع ليالٍ، وعن بعضهم في كل ست ليالٍ، وعن بعضهم في كل خمسٍ، وعن بعضهم في كل أربعٍ، وعن كثيرين في كل ثلاثٍ.. ثُمَّ ذكر أنَّ منهم من كان يختم في أقل من ذلك»[2].

وقال أيضاً: وأمَّا الذين يختمون في الأسبوع مرَّة فكثيرون، نُقِل عن عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، وأُبيٍّ بن كعب –

(١) فتح الباري ٩/٩٦ - ٩٧.
(٢) التبيان ٤٥.

رضي الله عنهم – وجماعة من التابعين كعبد الرحمن بن زيد، وعلقمة، وإبراهيم رحمهم الله تعالى[1].

(١) التبيان ٤٧.

المبحث الثالث

ترتيل القرآن وتحسين الصوت بالقراءة

قال تعالى: ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ ﴾[1]، وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي اقرأه على تمهلٍ[2].

وقد جاء في صفة قراءة النبي ﷺ أنَّها كانت متأنيةً مرتلة، ففي صحيح البخاري عن أنس – رضي الله عنه – أنَّه سُئِلَ عن قراءة النبي – ﷺ – فقال كانت مَدًّا ثُمَّ قرأ: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ يمد ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ ويمد ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ ويمد ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾[3].

وفي سنن أبي داود، والترمذي، والنسائي عن أُمِّ سلمة رضي الله عنها أنَّها نعتت قراءة النبي ﷺ فنعتت قراءته حرفاً حرفاً[4]. وقال الترمذي: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ.

---

(١) المزمل ٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢٧٦/٨.
(٣) صحيح البخاري مع الفتح، فضائل القرآن ٥٠٤٦.
(٤) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ١٤٦٦ عن يعلى بن مملك أنّه سأل أم سلمة عن قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وصلاته.. الحديث.

قال النووي – رحمه الله تعالى -: «وقد اتفق العلماء رضي الله عنهم على استحباب الترتيل»[1].

وفي الترتيل فضيلةٌ عظيمةٌ، فإنَّ منزلة قارئ القرآن تعلو في الجنة بقدر ما يرتل قراءته ويترسل فيها في الدنيا:

ففي سنن الترمذي عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإنَّ منزلتك عند آخر آية تقرأ بها» [2]. وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وفي المسند عن أبي سعيد – رضي الله عنه- عن النبي ﷺ: «يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد، ويصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شيء معه»[3]، وصححه الألباني[4].

وينبغي إتقان القراءة وتحسين الصوت بها لأن ذلك يزيد القرآن حسناً وقبولاً وتأثيراً في القلوب؛

---

(١) التبيان ٦٢.
(٢) فضائل القرآن: ٢٩١٤، وأخرجه ابن حبان في صحيحه كما في الإحسان: ٧١/٢، والحاكم في المستدرك: ٥١٧/١، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٧٩٧٨.
(٣) المسند: ٤٠/٣، وأخرجه ابن ماجه، كتاب الأدب: ٣٧٨٠.
(٤) صحيح الجامع رقم ٧٩٧٧.

ففي سنن النسائي، والدارمي، ومستدرك الحاكم عن البراء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حسنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حُسناً»[1].

قال ابن كثير: سنده جيد[2] وصححه الألباني[3].

وفي سنن أبي داود عن أبي لبابة – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: «ليس مِنَّا من لم يتغن بالقرآن»[4].

وحكى النووي عن جمهور العلماء أنَّ معنى «لم يتغنَّ» أي لم يحسن صوته بالقرآن[5].

ولقد كان رسول الله – ﷺ – القدوة في ذلك؛ ففي الصحيح عن البراء بن عازب – رضي الله عنه – قال: «سمعت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قرأ في العشاء بالتين والزيتون، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً منه»[6].

---

(١) النسائي: ١٧٩/٢، والدارمي: ٤٧٤/٢، والمستدرك: ٥٧١/١.
(٢) فضائل القرآن: ١١١.
(٣) صحيح الجامع رقم: ٣١٤٠.
(٤) صحيح البخاري مع الفتح/ التوحيد: ٢٥٢٧، سنن أبي داود، كتاب الصلاة: ١٤٧١.
(٥) التبيان ٧٥.
(٦) صحيح البخاري مع الفتح: كتاب الصلاة ٧٦٩، كتاب التوحيد ٧٥٤٦.

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مغفل – رضي الله عنه – قال: «رأيت رسول الله ﷺ على ناقته وهي تسير به وهو يقرأ سورة الفتح – أو من سورة الفتح – قراءة لينة يقرؤها وهو يُرَجِّع»[1].

والترجيع يحتمل معنيين؛ أحدهما: أنَّ ذلك حدث من هزة الناقة، والآخر: أنَّه أشبع المد في موضعه فحدث ذلك، حكاهما ابن حجر، ثُمَّ رجَّح الثاني، فقال: والثاني أشبه بالسياق، فإنَّ في بعض طرقه «لولا أن يجتمع النَّاس لقرأت لكم بذلك اللحن» أي النغم. قال: وقد ثبت الترجيع في غير هذا الموضع، فأخرج الترمذي في الشمائل، والنسائي، وابن ماجه، وابن أبي داود واللفظ له من حديث أُم هانئ: «كنت أسمع صوت رسول الله ﷺ وهو يقرأ وأنا نائمة على فراشي يرجِّع القرآن»[2].

وقال ابن أبي جمرة: معنى الترجيع تحسين الصوت[3].

وكان ﷺ يثني على ذي الصوت الحسن من أصحابه؛ ففي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – أنَّ رسول الله ﷺ

(١) صحيح البخاري مع الفتح. المغازي ٤٢٨١، صحيحي مسلم. صلاة المسافرين ٧٩٤.
(٢) صحيح البخاري في الفتح المغازي ٤٢٨١، صحيح مسلم، صلاة المسافرين ٧٩٤.
(٣) الفتح ٩٢/٢.

قال له: «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود»[1]، يشير بذلك إلى حسن صوته.

وفي سنن ابن ماجه عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: أبطأت على رسول الله ﷺ ليلةً بعد العشاء، ثُمَّ جئت، فقال: «أين كنت؟» قلت: كنت أسمع قراءة رجلٍ من أصحابك لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد. قالت: فقام، فقمت معه حتى استمع له ثُمَّ التفت إليَّ فقال: «هذا سالمٌ مولى أبي حذيفة، الحمد لله الذي جعل في أُمَّتي مثل هذا»[2].

قال البوصيري: إسناده صحيح، ورجاله ثقات. وقال ابن كثير: سنده جيد[3].

بل إنَّ الله تبارك وجلَّ في عُلاه ليحب الصوت الحسن بالقرآن ويستمع له؛ ففي الصحيحين عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ما أذن الله لشيءٍ ما أذِنَ لنبيّ حسن الصوت يتغنَّى بالقرآن يجهر به»[4].

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح. فضائل القرآن ٥٠٤٨، مسلم. صلاة المسافرين ٧٩٣.
(٢) سنن ابن ماجه. كتاب إقامة الصلاة ١٣٣٨.
(٣) فضائل القرآن ١١٣.
(٤) صحيح البخاري. كتاب فضائل القرآن ٥٠٢٣، مسلم. كتاب الصلاة ٧٩٢.

قال ابن الأثير: أي ما استمع الله لشيء كاستماعه لنبيٍ يتغنَّى بالقرآن[1].

وفي سنن ابن ماجه عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشدُ أذَناً[2] إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته»[3]. قال البوصيري: سنده حسن. وقال ابن كثير: سنده جيد[4].

قال النووي – رحمه الله تعالى -: «أجمع العلماء رضي الله عنهم من السلف والخلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الأمصار أئمة المسلمين على استحباب تحسين الصوت بالقرآن، وأقوالُهم وأفعالهم مشهورة نهاية الشهرة، فنحن مستغنون عن نقل شيء من أفرادها، ودلائلُ هذا من حديث رسول الله ﷺ مستفيضة عند الخاصة والعامة..»[5].

قلت: نعم، إن تحسين الصوت بالقرآن وتجويدَه مطلوبٌ شرعاً للأدلة الصريحة والصحيحة، لكن بشرط المحافظة على مخارج الحروف وتحقيقها

---

(١) النهاية في غريب الحديث ٣٣/١.
(٢) أذَناً: بالتحريك، أي استماعاً. المصدر السابق.
(٣) سنن ابن ماجه. إقامة الصلاة ١٣٤٠.
(٤) فضائل القرآن ١٠٦.
(٥) التبيان ٧٤.

واستيفاء أحكامها؛ لأن المعنى لا يفهم إلا بذلك، والفهم والتدبر هو المقصود، ولذلك جاء الثناء على القارئ الماهر:

ففي صحيح مسلم عن عائشة – رضي الله عنها – أن النبي ﷺ قال: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة»[1].

قال ابن حجر: «الماهر أي الحاذق، والمراد هنا جودة التلاوة مع حسن الحفظ»[2].

أما إذا أدى به التلحينُ إلى الإخلال بالمعنى بإخفاء بعض الحروف أو تحريفها أو ما شابه ذلك مما يُخِلُّ بالمعنى أو حاكى تلحين أهل الغناء والمجون فإنه يُذمُّ بذلك ولا يُمدح.

قال النووي – رحمه الله تعالى -: «قال العلماء رحمهم الله تعالى: فيستحب تحسين الصوت بالقراءة وترتيبها ما لم يخرج إلى حد القراءة بالتمطيط، فإن أفرط حتى زاد حرفاً أو أخفاه فهو حرام، وأما القراءة بالألحان فقد قال الشافعي رحمه الله تعالى في موضعٍ: أكرهها. قال

(١) صحيح مسلم، صلاة المسافرين: ٧٩٨.
(٢) الفتح: ٥١٨/١٣.

أصحابنا: ليست على قولين بل فيه تفصيل: إن أفرط في التمطيط فجاوز الحد فهو الذي كرهه، وإن لم يتجاوز فهو الذي لم يكرهه.

وحكي عن الماوردي في كتابه الحاوي قوله: «القراءة بالألحان الموضوعة إن أخرجت لفظ القرآن عن صيغته بإدخال حركاتٍ فيه أو إخراج حركاتٍ منه أو قصر ممدودٍ أو مد مقصورٍ أو تمطيطٍ يخفي به بعض اللفظ ويلتبس المعنى فهو حرامٌ يُفَسَّق به القارئ ويأثم به المُستمع لأنَّه عَدَلَ به عن نهجه القويم إلى الاعوجاج، والله تعالى يقول: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾[1]. قال: وإن لم يخرجه اللحن عن لفظه وقراءته على ترتيله كان مباحاً، لأنَّه زاد على ألحانه في تحسينه».

وقال النووي تعقيباً على ذلك: هذا كلام أقضى القضاة وهذا القسم الأول من القراءة بالألحان المحرمة مصيبةٌ ابتُلِيَ بها بعضُ الجهلة الطغام الغشمة الذين يقرأون على الجنائز وبعض المحافل. وهذه بدعةٌ محرَّمة ظاهرة، يأثم كل مستمعٍ لها كما قاله أقضى القضاة الماوردي، فيأثم كل قادرٍ على إزالتها أو على النهي عنها إذا لم يفعل ذلك[2].

---

(١) الزمر آية (٢٨).
(٢) التبيان ٧٥ ـ ٧٦.

وقال ابن كثير – رحمه الله تعالى -: «والغرض المطلوب شرعاً إنَّما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهمه والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة، فأمَّا الأصوات بالنغمات المحدثة المركبة على الأوزان والأوضاع الملهية والقانون الموسيقائي، فالقرآن ينزه عن هذا ويجل ويُعَظَّم أن يسلك في أدائه هذا المذهب وقد جاءت السنة بالزجر عن ذلك»[1].

ولا ريب أنَّ الغرض من تحسين الصوت بالقرآن وتجويده هو ترغيب السامع في القرآن وحملُه على التدبر والخشوع والتأثر به، فيا سعادة من أسر الألباب بكتاب الله تعالى وعطَّف القلوب عليه، لكن ليعلم القارئ أنَّه بقدْرِ ما يتأثر هو بقراءته ويخشع فيها يكون تأثيره في الآخرين.

ففي المختارة للضياء عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ أحسن النَّاس قراءةً الذي إذا قرأ رأيت أنَّه يخشى الله»، صحَّحَه الألباني[2].

---

(١) فضائل القرآن ١١٤ - ١١٥.
(٢) انظر السلسلة الصيحة ١١١/٤ - ١١٢.

وبذلك ينضم القارئ إلى ركب الدعاة إلى الله، ويكون ممن امتدحهم الله بقوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[1].

وأمَّا إن استحوذ عليه الشيطان فأنساه ذكر الله وصار داعياً إلى صوته، متطلِّعا إلى إعجاب النَّاس، فيا خسارة صفقته، ويا سوء منقلبه.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجلٌ استشهد فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت. ولكنك قاتلت لأن يُقال جريء. فقد قيل. ثُمَّ أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه حتى ألقي في النار. ورجلٌ تعلَّم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن فأُتِيَ به فعرَّفه نعمه فعرفها. قال: فما فعلت فيها؟ قال: تعلَّمْتُ العِلمَ وعلَّمْتُهُ، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت. ولكنك تعلَّمت ليقال عالم وقرأت القرآن لِيُقال قارئ. فقد قيل. ثُمَّ أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه في النار..» الحديث[2].

---

(١) فُصِّلَت ٣٣.
(٢) صحيح مسلم. الإمارة ١٩٠٥.

قال الآجُرِّي رحمه الله تعالى: «ينبغي لمن رزقه الله عزَّ وجلَّ حُسْنَ صوت بالقرآن أن يعلم أنَّ الله قد خصَّه بخيرٍ عظيم فليعرف قدر ما خصَّه الله به، وليقرأ لله لا للمخلوقين، وليحذر من الميل إلى أن يستمع منه ليحظى به عند السامعين رغبةً في الدَّنيا والميل إلى حسن الثناء والجاه عند أبناء الدنيا، والصِّلات عند الملوك دون الصِّلات بعوام الناس، فمن مالت نفسه إلى ما نُهِيَتْه عنه خفتُ أن يكون حُسْنُ صوته فِتنةً عليه، وإنَّما ينفعه حُسْنُ صوته إذا خشي الله عزَّ وجلَّ في السِّر والعلانية، وكان مراده أن يستمع منه القرآن لينبه أهل الغفلة عن غفلتهم فيرغبوا فيما رَغَّبَهُم الله عزَّ وجلَّ وينتهوا عمَّا نهاهم، فمن كان هذه صفته انتفع بِحُسْنِ صوته وانتفع به الناس»[1].

(١) أخلاق حملة القرآن ٧٦.

المبحث الرابع

تدبر القرآن عند تلاوته أو سماعه

لقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنَّه أنزل هذا القرآن ليُقْرَأ بتدبُّرٍ وتأمُّلٍ، فقال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾[1]. وأنكر سبحانه على الذين لا يتدبرونه فقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[3].

قال الشيخ ابن سعدي في تفسير هذه الآية: يأمر تعالى بتدبر كتابه وهو التأمل في معانيه وتحديق الفكر فيه وفي مبادئه وعواقبه ولوازم ذلك، فإنَّ التدبُّرَ في كتاب الله مفتاحٌ للعلوم والمعارف، وبه يُستنتج كل خير، وتُستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته، فإنَّه يُعَرِّف بالرب المعبود وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من

---

(١) ص ٢٩.
(٢) محمد ٢٤.
(٣) النِّساء ٨٢.

سمات النقص، ويعرِّف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها وما لهم عند القدوم عليه، ويُعَرِّف العدو الذي هو العدو على الحقيقة والطريق الموصلة إلى العذاب وصفة أهلها وما لهم عند وجود أسباب العقاب، وكلَّما ازداد العبد تأملاً فيه ازداد علماً وعملاً وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك وحثَّ عليه وأخبر أنَّه هو المقصود بإنزال القرآن كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

وساق العلامة محمد الأمين الشنقيطي الآيات السابقة الداعية إلى التدبر للقرآن، ثم قال: وهذه الآيات المذكورة تدل على أن تدبر القرآن وتفهمه وتعلمه والعمل به أمرٌ لا بد منه للمسلمين[1].

ولقد كان ذلك شأن رسول الله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، وتلاميذهم من التابعين مع كتاب الله تعالى. ففي مسند الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها «أنه ذُكر لها أن ناساً يقرأون القرآن في الليلة مرة أو مرتين. فقالت: أولئك قرأوا ولم يقرأوا، كنت أقوم مع رسول الله ﷺ ليلة

(١) أضواء البيان: ٤٢٩/٧، تيسير المنان: ٥٣/٢.

التهام فكان يقرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء فلا يمر بآية فيها تخوف إلا دعا الله واستعاذ ولا يمر بآية فيها استبشارٌ إلا دعا الله ورغب إليه»[1].

وفي صحيح مسلم عن حذيفة – رضي الله عنه – قال: «صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة. فقلت: يركع عند المائة. ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها. ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً إذا مر بآية فيها تسبح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مرَّ بتعوذٍ تعوَّذ، ثم ركع فجعل يقول: «سبحان ربي العظيم»... الحديث»[2].

وفي صحيح مسلم عن أبي وائل قال: «جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود.. وفيه قال: إني لأقرأ المفصَّل في ركعة. فقال عبد الله: هذًّا كهذِّ الشعر؟ إن أقواماً يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع»[3].

---

(١) المسند:١١٩/٦.
(٢) صحيح مسلم، صلاة المسافرين، رقم ٧٧٢.
(٣) صحيح مسلم، صلاة المسافرين، رقم ٨٢٢.

ولأبي عبيد عن أبي حمزة قلت لابن عباس: إني سريع القراءة، وإني لأقرأ القرآن في ثلاث، فقال: لأن أقرأ البقرة أرتلها فأتدبرها خيرٌ من أن أقرأ كما تقول[1].

ولقد كان يطول بأحدهم المقامُ مع الآية لتدبرها، بل ربما استوقفته ليلةً بأكملها، ففي سنن النسائي، وابن ماجه، ومستدرك الحاكم: عن أبي ذرٍ رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ بآية يرددها حتى أصبح، والآية: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾[2][3] صححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

وعن تميم الداري أنَّه كرَّر هذه الآية حتى أصبح ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[4][5].

وعن عباد بن حمزة قال: «دخلت على أسماء رضي الله عنها وهي تقرأ ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾[1] فوقفت عندها فجعلت

---

(١) فضائل القرآن لابن كثير ١٥١، وفتح الباري ٨٩/٩ وقال ابن حجر: وعند أبي داود من طريق أخرى عن أبي حمزة: قلت لابن عباس: «إني رجلٌ سريع القراءة، وإني لأقرأ القرآن في ليلة. فقال ابن عباس: لأن أقرأ سورةً أحبُّ إليَّ، إن كنت الآن فاعلاً فاقرأ قراءةً تُسْمِعُها أذنيك وتوعِيها قلبك».

(٢) المائدة آية (١١٨).

(٣) سنن النسائي ١٧٧/٢، ابن ماجه، حديث ٨٣٥٠، المستدرك ٢٤٦/١.

(٤) الجاثية آية (٢١).

(٥) التبيان ٦١.

تعيدها وتدعو فطال عليَّ ذلك فذهبت إلى السوق فقضيت حاجتي ثُمَّ رجعت وهي تعيدها وتدعو».

وردَّد ابن مسعود قوله تعالى: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾[٢]، وردَّد سعيد بن جبير قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾[٣]، وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾[٤]، وقوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾[٥].

ومن النصوص السابقة وعمل رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين ندرك ضرورة تدبر القرآن وفهم مراد الله تعالى منه ولذلك كان الإكثار من القراءة مع احتمال الإخلال بذلك غير محمودٍ، بل تشير النصوص إلى كراهته. ففي سنن أبي داود، والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ قال: «لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من

---

(١) الطور آية (٢٧).
(٢) طه آية (١١٤)
(٣) البقرة آية (٢٨١)
(٤) غافر آية (٧٠-٧١)
(٥) الانفطار آية (٦)

ثلاث» [1]. صححه النووي[2]، والحافظ ابن حجر أشار إلى صحته[3]، وصححه الألباني[4].

وقد جعل النووي – رحمه الله تعالى – الضابط للإسراع في قراءة القرآن والاستكثار من ختمه إمكان تدبره وتفهمه، فقد حكى بعضَ أحوال السلف في ختمهم للقرآن وسرعة بعضهم في ذلك، ثُمَّ قال رحمه الله: «والاختيار أنَّ ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر ما يحصل له كمال فهم ما يقرؤه، وكذا من كان مشغولاً بنشر العلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة فليقتصر على قدرٍ لا يحصل بسببه إخلالٌ بما هو مرصد له، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكن من غير خروجٍ إلى حد الملل والهذرمة»[5].

---

(١) سنن أبي داود. حديث ١٣٩٤.
(٢) التبيان ٤٨.
(٣) فتح الباري ٩٦/٩.
(٤) صحيح الجامع. حديث ٧٦٢٠ صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم.
(٥) التبيان ٤٨.

المبحث الخامس

البكاء عند قراءة القرآن أو سماعه

إنَّ البكاء عند قراءة القرآن أو سماعه من صفات المؤمنين الصادقين، فالمؤمن حين يتدبر القرآن يجد فيه صفات الكمال والعظمة لربه عزَّ وجلَّ، فيمتلئ قلبه عند ذلك مهابةً وإجلالاً لربه، كما يقف على ما أناطه الله به من الأمانة التي أَشْفَقَت منها السموات والأرض، وما وعد به من وَفَّى بها من النعيم المقيم وما توعَّد به مَن ضَيَّعَها من العذاب الأليم، ثُمَّ يستشعر تقصيره وتفريطه في ذلك، فتعظم عند ذلك حسرته، وتنسكب عبرته.

قال النووي رحمه الله تعالى «البكاء عند قراءة القرآن صفة العارفين وشعار عباد الله الصالحين[1].

ولقد أثنى الله على أنبيائه وصالحي عباده بذلك فقال سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾[2].

---

(١) التبيان ٦٢.
(٢) مريم آية (٥٨).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[2].

وما ذكرهم الله في كتابه ونوَّه عنهم إلَّا للتأسي بهم. ولقد كان البكاء عند تلاوة القرآن وسماعه شعار رسول الله ﷺ وأصحابه وخيرة السلف رضوان الله عليهم.

ففي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: «قال لي رسول الله ﷺ: «إقرأ عليَّ القرآن» فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أُنزِل؟ قال: «نعم. أحب أن أسمعه من غيري» قال: فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾[3] فقال: «حسبك» فإذا عيناه تذرفان»[4].

---

(١) الإسراء آية (١٠٧ – ١٠٩).
(٢) المائدة آية (٨٣).
(٣) النساء آية (٤١).
(٤) صحيح البخاري مع الفتح، فضائل القرآن ٥٠٥٥.

وقال ابن بطال: إنما بكى ﷺ عند تلاوة هذه الآية لأنه مَثَّل لنفسه أهوال يوم القيامة وشدة الحال الداعية إلى شهادته على أُمَّته بالتصديق وسؤاله الشفاعة لأهل الموقف، وهو أمر يحق له طول البكاء[1].

وقال ابن حجر: والذي يظهر أَنَّه بكى لأَنَّه علم أَنَّه لا بُدَّ أن يشهد عليهم بعملهم، وعملهم قد لا يكون مستقيماً فقد يفضي إلى تعذيبهم[2].

وروى ابن مردويه بسنده عن عطاء قال: انطلقت أنا، وابن عمر، وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها، فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب. فقالت: يا عُبيد ما يمنعك من زيارتنا؟ قال: قول الشاعر: زُر غبًّا تَزْدَدْ حُبًّا.

فقال ابن عمر: ذرينا، أخبرينا بأعجب شيءٍ رأيتِهِ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبكت وقالت: كل أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي حتى مسَّ جلده جلدي. ثم قال: «ذريني أتعبد ربي» قالت: فقلت: والله إني لأحب قربك، وإني أحب أن تتعبد لربك. فقام وتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي فبكى حتى بلَّ لحيته ثم سجد فبكى حتى بلَّ الأرض،

---

(١) فتح الباري ٩٩/٩.
(٢) فتح الباري ٩٩/٩.

ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنه لصلاة الصبح. قالت: فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ذنبك ما تقدم وما تأخر. فقال: «ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل عليَّ في هذه الليلة ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾[1]» ثم قال: «ويل لمن قرآها ولم يتفكر فيها»[2].

وأخرج عبد الرزاق بسنده عن قيس بن أبي حازم قال: كان عبد الله بن رواحة واضعاً رأسه في حجر امرأته فبكى، فبكت فقال: ما يبكيك؟ فقالت: رأيتك تبكي فبكيت. فقال: إني ذكرت قول الله عز وجل ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾[3] فلا أدري أأنجو منها أم لا؟[4].

وعن نافع قال: كان ابن عمر إذا قرأ هذه الآية: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[5] بكى حتى يغلبه البكاء[6].

---

(١) آل عمران آية (١٩٠).
(٢) تفسير ابن كثير: ١٦٤/٢ – ١٦٥، وعزاه لابن مردويه، وعبد بن حميد، وابن حبان وابن أبي الدنيا.
قلت: وهو صحيح ابن حبان كما في الإحسان: ٩/٢ بنحوه.
(٣) مريم آية (٧١).
(٤) عزاه له ابن كثير: ٢٤٧/٥، وأخرجه ابن جرير: ١١٠/١٦.
(٥) الحديد آية (١٦).
(٦) عزاه ابن حجر للدارمي في تاريخ أبي العباس وقال: «سنده جيد».

وعن عمر – رضي الله عنه – «أنه صلى بالجماعة الصبح فقرأ سورة يوسف، فبكى حتى سالت دموعه على ترقوته». وفي رواية: «أنه بكى حتى سمعوا بكاءه من وراء الصفوف»[1].

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لَمَّا اشتدَّ برسول الله ﷺ وجعُه قيل له: الصلاة. فقال: «مروا أبا بكر فليُصَلِّ بالنَّاس» قالت عائشة رضي الله عنها: إنَّ أبا بكرٍ رجلٌ رقيقٌ إذا قرأ غلبه البكاء. قال: «مروه فلْيُصَلِّ». فعاودته، قال: «مُروه فلْيُصَلِّ، إنَّكُنَّ صواحب يوسف»[2].

وعن أبي صالحٍ قال: قدم ناسٌ من أهل اليمن على أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه، فجعلوا يقرأون القرآن ويبكون. فقال أبو بكر رضي الله عنه: هكذا كُنَّا[3].

وعن الزهري أنَّ عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثُمَّ قرأ: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾. ثُمَّ يبكي وينشد:

---

(١) ذكره النووي في التبيان: ٦٢.
(٢) صحيح البخاري مع الفتح. كتاب الأذان ٦٨٢.
(٣) التبيان ٤٨.

نهارك يا مغرور سهوٌ وغفلة وليلك نومٌ والردى لك لازمُ

تُسَرُّ بِما يفنى وتفرحُ بالمُنى كما سُرَّ باللذات في الليل حالمُ

وتسعى إلى ما سوف تكره غِبَّه كذلك في الدُّنيا تكون البهائمُ[1].

(١) تفسير القرطبي ١٤١/١٣.

المبحث السادس

العمل بكتاب الله تعالى

إن أعظم جوانب النصيحة لكتاب الله وأبرز الأدلة على الإيمان به هو العمل به قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ ﴾[1].

فقد فسر ابن عباس وابن مسعود – رضي الله عنهما – والحسن وقتادة رحمهما الله التلاوة هنا بالعمل والاتباع[2]، وحالُ رسول الله ﷺ وصحابته أوضح شاهد لذلك، فقد كانوا لشدة التزامهم بتوجيهات القرآن كأنهم قرآنٌ يمشي على الأرض كما وصفهم بذلك من رآهم.

ولذا سوف أقتصر على إيراد نماذج من أقوالهم وأفعالهم فهي أبلغ في تحقيق الغرض: ففي صحيح مسلم عن عائشة – رضي الله عنها – أنها سئلت عن خُلق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن»[3].

---

(١) البقرة (١٢١).
(٢) تفسير القرطبي: ٩٥/٢.
(٣) صحيح مسلم، صلاة المسافرين: ٧٤٦ في حديث طويل.

وفي الأوسط للطبراني ومستدرك الحاكم بسند حسن عن ابن عمر – رضي الله عنهما – أنه قال: «لقد عشت برهة من دهري وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة على رسول الله ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها وما ينبغي أن نقف عنده منها كما تُعلَّمون أنتم القرآنَ ثم لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآنَ قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته ما يدري ما آمره ولا زاجره وما ينبغي أن يقف عنده منه ينثره نثر الدقل»[1].

وروى الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن»[2].

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثني الذين كانوا يُقرؤننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخالفوها حتى يعملوا بما فيها فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً»[3].

---

(١) مجمع البحرين بزوائد المعجمين: ٤٨٢/١، بتحقيق كاتب هذه الأسطر، والمستدرك: ٣٥/١، وقال صحيح على شرط الشيخين ولا أعرف له علة ولم يخرجاه وقال الذهبي: على شرطهما ولا علة له.

(٢) مقدمة تفسير ابن كثير: ١٣/١.

(٣) مقدمة تفسير ابن كثير: ١٣/١.

وقال الحسن بن علي بن أبي طالب – رضي الله عنهما-: «إن مَن كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل ويتفقدونها بالنهار»[1].

وهناك مواقف عملية كثيرة للصحابة – رضوان الله عليهم – مع النصيحة لكتاب ربهم تبرز لنا مبادرتهم للعمل والتنفيذ لتوجيهات القرآن. وتؤكد ما سبق في وصف حالهم ونجتزئ بعضها فيما يلي:

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: «لَمَّا نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾[2] قال: اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الرُّكب فقالوا:

يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نُطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها. قال رسول الله ﷺ «تريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير»، قالوا: سمعنا وأطعنا

---

(١) التبيان: ٤٣.
(٢) البقرة آية (٢٨٤).

غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم فأنزل الله في إثرها: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ ﴾[1] فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل الله عز وجل ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ ﴾.. الحديث[2].

فهذه القصة تؤكد ما سبق تقريره فإنه لما استقر في نفوس الصحابة رضوان الله عليهم الإيمان بالعمل بكل آية في كتاب الله – من المحكم – استشعروا بثقل التبعة التي تضمنتها هذه الآية وهي كونهم يحاسبون على ما أخفوا في أنفسهم، لأن الله يعلم ما توسوس به نفوس العباد ولذلك أتوا إلى الرسول ﷺ وَجلين كما فهم من قوله: «فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ» وقوله: «ثم بركوا على الركب».

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: «كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل وكان أحب أمواله إليه بَيْرحاء وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب

---

(١) البقرة آية (٢٨٥).
(٢) صحيح مسلم. الإيمان: ١٩٩.

فلما أنزلت ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾[1] قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾ وإن أحب أموالي إليّ بَيرَحاء وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. قال: فقال رسول الله ﷺ: بخٍ، ذلك مال رابح وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه»[2].

وفي الصحيحين عن ابن عمر أن عمر أصاب بخيبر أرضاً فأتى النبي ﷺ فقال: أصبت أرضاً لم أصب مالاً قط أنفس منه فكيف تأمرني به؟ قال: «إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها»[3].

قال ابن حجر – رحمه الله –: في هذا الحديث فضيلة ظاهرة لعمر لرغبته امتثال قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾[4].

---

(١) آل عمران آية (٩٢).
(٢) صحيح البخاري مع الفتح، الزكاة: ١٤٦١، ومسلم، الزكاة: ٩٩٨.
(٣) صحيح البخاري مع الفتح، الوصايا: ٢٧٧٢، ومسلم، الوصية: ١٦٣٢.
(٤) فتح الباري:٥/٤٠٣.

وروى البزار بسنده عن حمزة بن عبد الله بن عمر قال: قال عبد الله حضرتني هذه الآية ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾ فذكرت ما أعطاني الله فلم أجد شيئاً أحب إليّ من جارية لي رومية، فقلت: هي حرة لوجه الله فلو أني أعود في شيء جعلته لله لنكحتها يعني تزوجها[1].

وفي صحيح البخاري عن ابن أبي مُليكة قال: كاد الخيِّران أن يَهلكا أبو بكر وعمر – رضي الله عنهما – رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع وأشار الآخر برجل آخر – قال نافع: لا أحفظ اسمه – فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك. فأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ ﴾[2] الآية.

قال ابن الزبير: فما كان عمر يُسْمِع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه ولم يذكر ذلك عن أبيه»[3].

قال ابن حجر: وقد أخرج ابن المنذر من طريق محمد بن عمرو بن علقمة أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال مثل ذلك للنبي ﷺ، وهذا

---

(١) تفسير ابن كثير: ٦١/٢.
(٢) الحجرات آية (٢).
(٣) صحيح البخاري مع الفتح، التفسير: ٤٨٤٥.

مرسل وقد أخرجه الحاكم موصولاً من حديث أبي هريرة نحوه، وأخرجه ابن مردويه من طريق ابن شهاب عن أبي بكر قال: «لما نزلت ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾.. الآية. قال أبو بكر: قلت يا رسول الله، آليت ألَّا أكلمك إلّا كأخي السرار»[1].

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – «أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده جالساً في بيته منكِّساً رأسه فقال له: ما شأنك؟ قال: شر – كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله فهو من أهل النار. فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال: كذا وكذا. فرجع إليه المرة الثانية ببشارة عظيمة فقال: اذهب إليه فقل له إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة»[2].

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: قدم علينا عُيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من النفر الذين يُدْنيهم عمر – وكان القراء أصحاب مجلس عمر

---

(١) فتح الباري: ٥٩١/٨.
(٢) صحيح البخاري مع الفتح، التفسير: ٤٨٤٦.

ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه قال: سأستأذن لك عليه. قال ابن عباس فاستأذن الحر بن قيس لعيينة فأذن له عمر فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب فو الله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر حتى همّ به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله قال لنبيه ﷺ ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾[1] وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقافاً عند كتاب الله»[2].

والشاهد قوله: «والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقافاً عند كتاب الله»، وهذه الواقعة تختلف عن الوقائع السابقة لأن فيها أطراً للنفس في سورة غضبها على الحق وذلك تحقيق لصفات عباد الرحمن الذين وصفهم الله بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾[3].

(١) الأعراف آية (١٩٩).
(٢) صحيح البخاري مع الفتح، التفسير:٤٦٤٢، الاعتصام: ٧٢٨٦.
(٣) الفرقان آية (٧٣).

وفي الصحيح عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال: لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾[1] شق ذلك على المسلمين فقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس ذلك إنما هو الشرك، ألم تسمعوا قول لقمان لابنه ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾[2][3].

وفي مسند الإمام أحمد والمستدرك عن أبي بكر بن أبي زهير قال: أُخبرت أن أبا بكر قال: يا رسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾[4] فكل سوء عملنا جُزينا به؟ فقال رسول الله ﷺ: «غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض ألست تنصَب ألست تحزن ألست تصيبك اللأواء، قال. بلى، قال: فهو مما تجزون به»[5]. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

وروى ابن جرير عن أنس – رضي الله عنه – قال: كان أبو بكر يأكل مع النبي ﷺ فنزلت هذه الآية ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧﴾

---

(١) الأنعام آية (٨٢).
(٢) لقمان آية (١٣).
(٣) صحيح البخاري مع الفتح، التفسير: ٤٧٧٦، ٤٦٤٩.
(٤) النساء آية (١٢٣).
(٥) المسند: ٦٨/١ – ٦٨، المستدرك: ٧٤/٣.

وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾[1] فرفع أبو بكر يده وقال: يا رسول الله إني أجزى بما عملت من مثقال ذرة من شر؟. فقال: «يا أبا بكر ما رأيت في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر ويدخر لك مثاقيل ذر الخير حتى تُوفَّاه يوم القيامة»[2]. وفي المسند عن صعصعة عم الفرزدق أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ فقال: حسبي ألّا أسمع غيرها[3].

ولعل فيما سبق من الأمثلة كفايةً لتصور حقيقة النصيحة لكتاب الله تعالى، لكن ربما تساءل بعض المؤمنات الصالحات أليس للصحابيات مواقف تبرز حالهنَّ في تلقِّيهِنَّ كتاب ربهن ونصحهن له؟.

فأقول: إن تلقي الصحابة والصحابيات – رضوان الله عليهم أجمعين – لكتاب ربهم علماً وعملاً حقيقةٌ واضحةٌ لا تحتاج إلى براهين، فالسيرة النبوية كلها ناطقة بذلك.

وما ذكرناه من الأمثلة السابقة عن الصحابة ليس لإثبات هذه الحقيقة، كلَّا، وإنما ذكرنا ذلك لتوضيح معنى النصيحة من خلال فهم

---

(١) الزلزلة آية (٧-٨).
(٢) تفسير ابن جرير: ٢٦٨/١٥.
(٣) المسند: ٥٩/٥.

الصحابة رضوان الله عليهم ثم لحفز النفوس لتحقيقها؛ لأن هذه الحقيقة أصبحت في مجتمعاتنا من قبيل غربة الدين، فمن هذه الحيثية لا بأس بذكر نماذج من حال الصحابيات أيضاً فإن لهن مواقف لا تخفى، فهذه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تأخذ آية الزلزلة التي سبق ذكر مواقف بعض الصحابة معها مأخذ التنفيذ؛ ففي موطأ الإمام مالك رحمه الله تعالى أن مسكيناً استطعم عائشة أم المؤمنين وفي يدها عنب فقالت لإنسان: خذ حبة فأعطه إياها فجعل ينظر إليها ويعجب. فقالت عائشة: أتعجب؟ كم ترى في هذه الحبة من مثقال ذرة؟![1].

وأم المؤمنين ما تصدقت بحبة العنب عن بخل، حاشاها عن ذلك فهي الكريمة بنت الكريم، فقد روى هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير ابن اختها أن معاوية رضي الله عنه بعث إليها بمائة ألف. قال: فو الله ما غابت عليها الشمس حتى فرَّقَتْها، فقالت مولاة لها: لو اشتريت لنا من ذلك بدرهم لحماً؟ فقالت: ألا أذكرتني؟[2].

---

(١) الموطأ، كتاب الصدقة: ٦.
(٢) تذكرة الحافظ: ٢٨/١.

وإنما تصدقت بحبة العنب عملاً بالآية وإرشاداً لغيرها ألّا يحقروا شيئاً من الخير، ثم إن حرصها على مثقال الذرة من الخير دليل على حذرها من مثقال الذرة من الشر أيضاً، فهل أدركت المسلمات من هذه الآية ما أدركت أمهنَّ عائشة – رضي الله عنها – فاجتنبن ما هو في أعينهن يعدل الذرة ولربما كان في أعين الصحابيات يعدل الجبل؟.

ولا يقال: تلك أم المؤمنين فأين نحن منها؟ فإن ذلك كان شأن الصحابيات – رضي الله عنهن – كلهن بشهادة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ففي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأُول، لما أنزل الله ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾[1] شققن مروطهن فاختمرن[2] بها»[3].

كما شهدت بذلك لنساء الأنصار أيضاً، فقد روى ابن أبي حاتم عنها أنها قالت: «والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار وأشد تصديقاً بكتاب الله ولا إيماناً بالتنزيل، لقد أنزلت سورة النور: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ

---

(١) النور آية (٣١).
(٢) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : (فاختمرن) أي غطين وجوههن وصفة ذلك أن تضع الخمار على رأسها وترميه من الجانب الأيمن على العاتق الأيسر وهو التقنع. فتح الباري ٤٩/٨
(٣) صحيح البخاري مع الفتح، التفسير: ٤٧٥٨.

عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ انقلب إليهن رجالهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابة، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحّل فاعتجرت به[1] تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله في كتابه، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ الصبح معتجرات كأنه على رؤوسهن الغربان[2].

(١) يقول ابن الأثير: الاعتجار بالعمامة هو أن يلفها على رأسه ويرد طرفها على وجهه ولا يعمل منها شيئا تحت ذقنه. النهاية ١٨٥/٣

(٢) تفسير ابن كثير: ٤٨/٦ - ٤٩.

الفصل الرابع

واجبنا في تحقيق النصيحة لكتاب اللّه تعالى

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول

حالنا مع النصيحة لكتاب الله تعالى

لقد وقفنا من خلال الأحاديث والآثار السابقة على صورة وضيئة تَجسَّد فيها معنى النصيحة لكتاب الله تعالى في واقع ملموس، إنه حال رسول الله ﷺ وأصحابه مع النصيحة لكتاب الله تعالى قراءة وتدبراً وعملاً وهو الحال الذي لا يقبل الله غيره، فقد جاء في وصف النبي ﷺ للفرقة الناجية بأنها من كان على مثل ما كان عليه هو وأصحابه»[1].

فلا يسعنا إلا أن ننظر حالنا مع النصيحة لكتاب الله تعالى ونقوِّمه من خلال مقارنته بتلك الصورة الوضيئة لنرى مدى تحقيقنا لها، وإننا والحمد لله لنرى اليوم عناية كبيرة في خدمة كتاب الله تعالى، فلقد أصبح القرآن في متناول كل أحد شاء قراءته أو سماعه، فنُسخه من المصاحف والأشرطة المسموعة أكثر من أن يحيط بها العدُّ والحصر، ولا يخفى دور مجمع الملك

---

(١) المعجم الصغير للطبراني: ٢٩/٢ من حديث أنس بن مالك.

فهد لطباعة المصحف الشريف في هذا المجال وفي غيره من المجلات التي تهدف إلى العناية بكتاب الله.

وفي بلاد الحرمين – حماها الله – مدارس خاصة بتحفيظ كتاب الله تعالى – حكوميّة وأهليّة- وهي منتشرة في أنحاء البلاد وإلى جنبها «جمعيات تحفيظ القرآن الخيرية» قد انتشرت حِلَقها في المدن والقرى والهجر، وتلك جهود مشكورة – نسأل الله أن يبارك فيها ويجزي القائمين عليها – ، وهي بلا شك من النصيحة لكتاب الله تعالى وخطوة لا بد منها لتحقيق الجانب العملي من النصيحة وهو الجانب الهام الذي من أجله أنزل القرآن. قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾[1].

قال الحسن البصري رحمه الله: تدبر آياته اتباعها[2]. وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾[3].

قال ابن مسعود وابن عباس – رضي الله عنهما -: «يتبعونه حق اتباعه»[1]. فما حال المسلمين اليوم مع هذا الجانب من النصيحة لكتاب الله

---

(١) «ص»: ٢٩.
(٢) تفسير القرطبي: ١٩٢/١٥.
(٣) البقرة آية (١٢١).

يا ترى؟ إن المتأمل لحال المسلمين اليوم في مشارق الأرض ومغاربها ليرى التقصير في هذا الجانب واضحاً والبون ما بين حالهم وحال السلف رضوان الله عليهم شاسعاً، سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى المجتمعات، ولندع الحديث عن ذلك للعلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى، فقد ذكر نبذة في فضل القرآن وهدايته ثم قال: ومع هذا كله فإن أكثر المنتسبين للإسلام اليوم في أقطار الدنيا مُعرِضون عن التدبر في آياته غير مكترثين بقول من خلقهم ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[2]، لا يتأدبون بآدابه ولا يتخلقون بما فيه من مكارم الأخلاق، يطلبون الأحكام في التشريعات الضالة المخالفة له، غير مكترثين بقول ربهم: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[3] وقوله: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾[4]. بل المتأدب بآدابه القرآن المتخلق بما

(١) تفسير ابن كثير: ٢٣٦/١ وفيه عنهما أيضاً: يحلون حلاله ويحرمون حرامه.
(٢) محمد آية (٢٤).
(٣) المائدة آية (٤٤).
(٤) النساء آية (٦٠).

فيه من مكارم الأخلاق محتقَر مغموز فيه عندهم إلا من عصمه الله، فهم يحتقرونه واحتقاره لهم أشد. قال الشافعي رحمه الله:

فهذا زاهد في قرب هذا وهذا فيه أزهد منه فيه

وإياك يا أخي ثم إياك أن يزهدك في كتاب الله تعالى كثرة الزاهدين فيه ولا كثرة المحتقرين لمن يعمل به ويدعو إليه، واعلم أن العاقل الكيِّس لا يكترث بانتقاد المجانين. اهـ[1].

قلت: والمتأمل في واقع المسلمين اليوم يرى أن ما ذكره الشيخ رحمه الله تعالى أوضح من فلق الصبح لا يحتاج إلى برهان بل الأمر كما قيل:

وليس يصح في الأذهان شيءٌ إذا احتاج النهار إلى دليلِ

والسؤال الذي يطرح نفسه كما يقال:

ما هو السبب في تخلُّف حال المسلمين اليوم عن حال السلف في عدم تخلقهم بأخلاق القرآن وتأدبهم بآدابه ورجوعهم إليه في جميع أمورهم؟.

وجواب هذا التساؤل في المبحث التالي:

---

(١) أضواء البيان: ٥٠٤/١.

المبحث الثاني
سبب قصور حالنا اليوم عن حال السلف
إزاء النصيحة لكتاب الله تعالى

لقد جاء الجواب عن التساؤل السابق في أثرٍ لابن عمر رضي الله عنهما وكفى به حجة في ذلك، فكما قيل: «على الخبير سقطت»، فقد بيَّن الدافع للصحابة رضوان الله عليهم إلى العمل بكتاب الله تعالى وتحقيق النصيحة له كما بين سبب التقصير في العمل بكتاب الله، فقال رضي الله عنه: «لقد عشت برهة من دهري وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة على رسول الله ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها وما ينبغي أن نقف عنده منها كما تُعَلَّمون أنتم القرآن، ولقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته ما يَدْري ما آمِرُه ولا زاجره وما ينبغي أن يقف عنده منه ينثره نثر الدقل[1].

---

(١) انظره ص: ٧٧.

فالإيمان الذي اشار إليه ابن عمر بقوله: «وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن..» هو الإيمان بأن القرآن إنما أنزل لتدبر آياته والعمل به، وذلك الإيمان هو الذي دفع الصحابة رضوان الله عليهم لتحقيق النصيحة لكتاب الله على ذلك الوجه، فكانوا فور نزول السورة أو الآية يبادرون لتعلمها والعمل بها كما قال ابن عمر في حديثه السابق: «وتنزل السورة على رسول الله ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها وما ينبغي أن نقف عنده منها».

قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثني الذين كانوا يُقْرؤوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخالفوها حتى يعملوا بما فيها»[1].

ولقد استقرت هذه الحقيقة في نفوس الصحابة – رضوان الله عليهم – فرأوا ضرورة تَلازُمِ تعلُّم كتاب الله والعملِ به وأنه لا يمكن الفصل بينهما، وكانوا يلقنون تلاميذهم من التابعين ذلك، فيقول ابن عمر في حديثه السابق لتلاميذه: «كما تعلمون أنتم القرآن». ويقول أبو عبد الرحمن السلمي أحد تلاميذ الصحابة «فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً».

---

(١) انظره ص: ٤٩.

ولقد أصبح هذا المنهج مألوفاً لدى التابعين حتى كانوا ينكرون على من أخلَّ به أشدَّ النكير، فيقول الحسن البصري رحمه الله تعالى وهو من سادات التابعين وجِلّتهم: «إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، وما تدبُّرُه بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله ما يرى القرآن له في خلق ولا عمل حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نَفَسٍ، والله ما هؤلاء بالقراء ولا الحكماء ولا الورعة متى كان القرآن مثل هذا؟ لا كثر الله في الناس من أمثال هؤلاء».

وأفاد الأثر السابق عن ابن عمر أيضاً أن سبب التقصير في العمل بكتاب الله يرجع إلى عدم تمكن ذلك الإيمان من القلوب، فقد جاء فيه قوله: «ولقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته ما يدري ما آمره ولا زاجره...».

ويَعْني أن أولئك الذين أدركهم قد قصَّروا في العمل، كان أحدهم يتلقى القرآن وليس في قلبه من الإيمان بوجوب العمل به ما يدفعه للعمل.

فقد ظهر لنا من خلال ما سبق أن إيمان السلف بتلازم تعلم كتاب الله والعمل هو الذي جعلهم يحققون النصيحة لكتاب الله تعالى كما أن ضعف

الإيمان بذلك في قلوب أولئك الذين أنكر حالهم ابن عمر والحسن هو الذي حملهم على التقصير في تحقيقها. إذَن فبقدر ما تزيد نسبة ذلك الإيمان في قلب العبد يكون تحقيقه للنصيحة وقربه من حال السلف، وبقدر ما يضعف ذلك الإيمان في قلبه يكون تقصيرُه في تحقيق النصيحة وبُعده عن حال السلف وكل امرئ حسيب نفسه، والله المستعان.

المبحث الثالث

كيف نحقق النصيحة لكتاب الله تعالى؟

إنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها كما قال الإمام مالك – رحمه الله تعالى –، فمنهج الصحابة – رضوان الله عليهم – في ذلك هو وحده الكفيل بتحقيقها، إذ إنهم قد تلقوه عن رسول الله ﷺ وعنهم أخذه مَن بعدهم.

فلا بد من دعوة جادة لتجديد ذلك المنهج، ولعل فيما سبق من النصوص ما يعطي صورة واضحة له. وأحب أن أشير فيما يلي إلى أمور تساعد عملياً على تحقيق النصيحة لكتاب الله تعالى.

١ – المبادرة بالتوبة النصوح من جميع الذنوب والمعاصي، لا سيما أمراض القلوب حتى يصبح القلب مهيئاً لقبول كلام الله تعالى، وفي القاعدة العقلية التي يحكيها ابن القيم رحمه الله تعالى: «قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده»[1]، فكما أن القلب المطمئن بذكر الله

---

(١) الفوائد: ٢٧.

تعالى وتلاوة القرآن ينفر عن ضد ذلك من اللهو والغناء فكذلك القلب المشرب بحب اللهو والغناء لا ينشرح لذكر الله وللقرآن ولا ينتفع بذلك.

وقد جعل ابن جماعة – رحمه الله تعالى – التوبة أول آداب طالب العلم، فقال – رحمه الله تعالى – في معرض تعداده لآداب المتعلم:

الأول: أن يطهر قلبه من كل غشٍ ودنسٍ وغلٍ وحسد وسوء عقيدة وخلق ليصلح بذلك لقبول العلم وحفظه والاطلاع على دقائق معانيه وحقائق غوامضه فإن العلم كما قال بعضهم: صلاة السرِّ وعبادة القلب وقربة الباطن، وكما لا تصلح الصلاة التي هي عبادة الجوارح الظاهرة إلا بطهارة الظاهر من الحدث والخبث فكذلك لا يصلح العلم الذي هو عبادة القلب إلا بطهارته من خبث الصفات وحدث مساوئ الأخلاق ورديئها.

وإذا طيب القلب للعلم ظهرت بركته ونما كالأرض إذا طيبت للزرع نما زرعها وزكا، وفي الحديث «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب».

وقال سهل بن عبد الله التستري: «حرام على قلبٍ أن يدخله النور وفيه شيء مما يكرهه الله عز وجل» اهـ[1].

وقال الشافعي – رحمه الله تعالى:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال: اعلم بأن العلم نور ونور الله لا يؤتاه عاصِ

وإذا كان ذلك مشروطاً لطلب العلم عموماً فتعلم كتاب الله أولى بذلك.

٢ – أن يشعر التالي لكتاب الله أو السامع له أنه هو المخاطب.

قال ابن مسعود – رضي الله عنه –: إذا سمعت «يا أيها الذين آمنوا» فأصغ لها سمعك فإما خيراً تؤمر به أو شراً تنهى عنه.[2]

وقال الحسن بن على – رضي الله عنه –: إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل ويتفقدونها بالنهار[3].

وقال الآجري – رحمه الله تعالى –: فالمؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن كالمرآة يرى فيها ما حسن من فعله وما قبح منه، فما

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم: ٦٧.
(٢) التبيان: ٤٣
(٣) .المصر نفسه.

حذَّره مولاه حَذِره وما خوَّفه خافه وما رغَّبه فيه رَغِب فيه ورجاه، فمن كانت هذه صفته أو ما قارب هذه الصفة فقد تلاه حق تلاوته ورعاه حق رعايته وكان له القرآن شاهداً وشفيعاً وأنيساً وحرزاً، ومن كان هذا وصفه نفع نفسه ونفع أهله وعاد على والديه وولده كل خير في الدنيا والآخرة[1].

وقال ابن القيم – رحمه الله تعالى -: إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه وألق سمعك واحضر حضور من يخاطبه من تكلم به سبحانه منه إليه فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ﷺ[2].

٢ – استشعار الحال التي نزل فيها القرآن على رسول الله ﷺ.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي – رحمه الله – فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول ﷺ وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله من أعظم ما يعين على معرفته وفهم المراد منه»[3].

---

(١) أخلاق حملة القرآن: ٢٩.
(٢) الفوائد: ٣.
(٣) تيسير الكريم المنان: ٤/١.

٤ – أن يكون حال قراءة القرآن أو سماعه حاضر القلب متدبراً متفهماً لكلام الله تعالى، كما قال سبحانه ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾[1].

قال ابن قتيبة: أي استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم ليس بغافل ولا ساهٍ[2].

٥ – الاستعانة بالله تبارك وتعالى في تحقيق ذلك فإن عون الله هو الأساس لتحقيق كل خير وفلاح، قال تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ ﴾[4].

وكما قيل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يقضي عليه اجتهاده

---

(١) ق آية (٣٧).
(٢) الفوائد: ٣.
(٣) الكهف آية (١٧).
(٤) فاطر آية (٢).

فلا بد لمن أراد تحقيق النصيحة لكتاب الله تعالى من الضراعة إلى مولاه تبارك وتعالى ليمده بالعون على تحقيقها وقد أرشد إلى ذلك المصطفى ﷺ في وصيته لمعاذ:

ففي سنن أبي داود عن معاذ رضي الله عنه أن النبي ﷺ أخذ بيده وقال: «يا معاذ والله إني لأحبك أوصيك يا معاذ، لا تدعنَّ في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[1].

ولا شك أن النصيحة لكتاب الله تعالى داخلة في هذه الوصية لأن كتاب الله تعالى من الذكر، والنصيحة له من العبادة.

(١) سنن أبي داود، كتاب الصلاة: ١٥٢٢ وهو في صحيح ابن حبان كما في الإحسان: ٢٣٤/٣، ومستدرك الحاكم.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحين وبعد، فبعونه وتوفيقه تبارك وتعالى تم إنجاز هذا البحث وتذكيراً بأهم النقاط التي تطرق لها أوجزها فيما يلي:

- اشتمال كتاب الله تعالى على الهداية لخيري الدنيا والآخرة.
- أن تلك الهداية قد تمثلت في واقع محسوس حتى شهد بها الأعداء وسبق تفصيل ذلك في ثنايا البحث.
- النصيحة لكتاب الله تعالى هي قراءته وتدبره والعمل بما جاء به.
- أن السلف رضوان الله عليهم قد حققوا النصيحة لكتاب الله بذلك الشمول، وسبق ذكر ما يثبت ذلك من أقوالهم وأفعالهم.
- من خلال مقارنة حالنا اليوم بحال السلف رضوان الله عليهم يتبين لنا التقصير الكبير في تحقيق تلك النصيحة.
- تمَّ الوقوف من خلال تلك المقارنة على سبب ذلك التقصير.
- كما سبق التذكير ببعض الأمور التي تساعد على تحقيق النصيحة.

هذا وأسأل المولى تبارك وتعالى أن يوفقنا وجميع المسلمين لتحقيق النصيحة لكتابه وأن يهدينا بهدايته لخيري الدنيا والآخرة.

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

المؤلف

مراجع البحث

القرآن الكريم.

أخلاق حملة القرآن للآجري، مكتبة الدار.

الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، مكتبة الكليات الأزهرية.

أضواء البيان للشنقيطي، ط. الأولى، دار الأصفهاني.

البداية والنهاية لابن كثير، ط. الأولى، دار الكتب العلمية.

تاريخ بغداد للخطيب، دار الكتاب العربي.

التبيان في آداب حملة القرآن للنووي، ط. الثانية، دار النفائس.

تذكرة الحفاظ للذهبي، دار إحياء التراث.

تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة، دار الكتب العلمية.

ترتيب القاموس للزواوي، ط. الثانية، الحلبي وشركاؤه.

تعظيم قدر الصلاة للمروزي، ط. الأولى، مكتبة الدار.

تلخيص مستدرك الحاكم للذهبي، بحاشية المستدرك.

تيسير الكريم المنان لابن سعدي، ط. الجامعة الإسلامية.

جامع البيان لابن جرير الطبري، دار المعارف، تحقيق أحمد شاكر.

جامع البيان لابن جرير الطبري، دار الفكر.
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ط. الثالثة، مركز تحقيق التراث.
سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، ط، الأولى. المكتب الإسلامي.
سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني، ط، الأولى المكتب الإسلامي.
سنن الترمذي، مطبعة الحلبي وأولاده.
سنن الدارمي، دار إحياء السنة النبوية.
سنن أبي داود، تحقيق الدعاس.
سنن ابن ماجه، دار إحياء التراث العربي.
سنن النسائي (المجتبى)، دار إحياء التراث.
سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة.
شرح النووي على صحيح مسلم، دار الفكر.
صحيح البخاري، مطبوع مع الفتح، المطبعة السلفية.
صحيح مسلم، دار إحياء التراث.
صحيح الجامع، للألباني، ط الأولى، المكتب الإسلامي.
ضعيف الجامع، للألباني، ط الأولى، المكتب الإسلامي.
الغارة على العالم الإسلامي.

فتح الباري لابن حجر، المطبعة السلفية.
فضائل القرآن لابن كثير، دار المعرفة.
الفوائد لابن القيم، مطبعة الإمام.
لسان العرب لابن منظور. دار صادر.
المؤمل في الرد إلى الأمر الأول لأبي شامه، ضمن مجموع الرسائل المنيرية.
مجمع البحرين بزوائد المعجمين للهيثمي، ط. الأولى، مكتبة الصديق.
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان لسبط ابن الجوزي، مركز إحياء التراث جامعة أم القرى.
مستدرك الحاكم، دار الكتاب العربي.
مسند الإمام أحمد، المكتب الإسلامي.
المعجم الصغير للطبراني، المكتب الإسلامي.
المعلم بفوائد مسلم للمازري، دار الغرب الإسلامي.
موطأ الإمام مالك، كتاب الشعب.
النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، المكتبة الإسلامية.

فهرس المحتويات

الموضوع الصفحة

المقدمة..... ٣
الفصل الأول: في بيان فضل القرآن على غيره واشتمال القرآن على الهداية لخيري الدنيا والآخرة وفيه مبحثان..... ١٤
المبحث الأول: فضل القرآن على غيره..... ١٥
المبحث الثاني: اشتمال القرآن على الهداية لخيري الدنيا والآخرة..... ٢٠
الفصل الثاني: الترغيب في قراءة القرآن والعمل به والترهيب من هجره والإعراض عنه وفيه مبحثان..... ٣١
المبحث الأول: الترغيب في قراءة القرآن والعمل به..... ٣٣
المبحث الثاني: الترهيب من هجر القرآن والإعراض عنه..... ٣٩
الفصل الثالث: التعريف بالنصيحة لكتاب الله تعالى من خلال النصوص وأقوال السلف وأفعالهم وفيه عدة مباحث..... ٤٤
المبحث الأول: في بيان معنى النصيحة..... ٤٥
المبحث الثاني: قراءة القرآن مع الاكثار منها والمداومة على ذلك..... ٤٨

المبحث الثالث: ترتيل القرآن وتحسين الصوت بالقراءة..... ٥٢
المبحث الرابع: تدبّر القرآن عند تلاوته أو سماعه..... ٦٤
المبحث الخامس: البكاء عند قراءة القرآن أو سماعه..... ٧٠
المبحث السادس: العمل بكتاب الله تعالى..... ٧٦
الفصل الرابع: واجبنا في تحقيق النصيحة لكتاب الله وفيه ثلاثة مباحث..... ٩٠
المبحث الأول: حالنا مع النصيحة لكتاب الله..... ٩١
المبحث الثاني: سبب قصور حالنا اليوم عن حال السلف إزاء النصيحة لكتاب الله..... ٩٥
المبحث الثالث: كيف نحقق النصيحة لكتاب الله تعالى..... ٩٩
الخاتمة..... ١٠٦
مراجع البحث..... ١٠٨
فهرس المحتويات..... ١١١